دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	في الفكر السياسي عند ابن خلدون 1
المصدر:	مجلة الفرقان
الناشر:	امحمد طلابى
المؤلف الرئيسي:	شبار، سعيد بن الصغير
المجلد/العدد:	ع19
محكمة:	لا
التاريخ الميلادي:	1989
الشهر:	أغسطس / ذو الحجة
الصفحات:	22 - 25
رقم MD:	589218
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	IslamicInfo
مواضيع:	المفكرون المسلمون ، ابن خلدون، عبدالرحمن بن محمد، ت 808 هـ، الفكر السياسي
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/589218

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

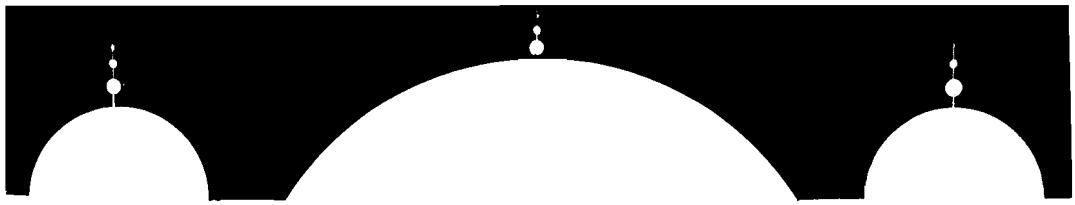

في الفكر السياسي عند ابن خلدون -1-

سعيد شبار

ما يزال الاهتمام بابن خلدون قائما في الأوساط العلمية، ومايزال الاهتمام بالفكر الخلدوني بالغا ذروته في كل مناسبة، وهذا راجع الى ما يثيره هذا الفكر الموسوعي من مشكلات متشعبة ومتعددة في وجوه الباحثين، وما يطرحه من قضايا اجتماعية وسياسية وتاريخية.. وما توصل إليه من علوم قائمة الذات في الاجتماع البشري «العمران» أو التاريخ «فن التاريخ» والسياسة.. وفي مجالات أخرى شكلت بمجموعها نسقا مفاهيميا ومنظومة فكرية ميزت ابن خلدون عن سابقيه ومعاصريه.

ولا نعجب بعد هذا من سيل الدراسات والبحوث التي تناولت جوانب متعددة من هذا الفكر، **والتي نحت لأسباب ايديولوجية متباينة مناحي مختلفة في دراستها له**. ولعل القاسم المشترك الذي يمكن تأكيده بين هذه الدراسات هو تركيزها على النواحي الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والتاريخية وغيرها مع إهمال تام للجانب الديني وتعطيل مفعوله في توجيه الرؤية الخلدونية لكل النواحي السالفة الذكر..

والسؤال الذي ينبغي طرحه الآن، هل صحيح أن الرؤية الدينية لم تكن حاضرة في النسق المفاهيمي الخلدوني، ومن ثم تكون هذه الدراسات على جانب كبير من الصحة؟ أم أن هذه الرؤية قد غمطت حقها. وعمل على طمسها وتعتيمها ؟

ذلك ما نحاول استطلاعه من خلال تعرضنا لجانب من جوانب هذا الفكر الموسوعي وهو الفكر السياسي عند العلامة ابن خلدون.

وقبل هذا كله، أرى أنه لابد من بعض المقدمات الأولية تكشف لنا عن المنحى الحقيقي لمعظم هذه الدراسات والبحوث التي أنجزت حول العلامة وفكره. ويمكن تقسيم هذه الدراسات عموما الى غربية «استشراقية» وأخرى عربية تعيش على مائدة الاستشراق.

فمن أقوال بعض المستشرقين ما قاله المستشرق الألماني «فون فنسندنك» «Von Wesendonk» بأن ابن خلدون «تحرر من أصفاد التقاليد الاسلامية في درس شؤون الدولة والادارة وغيرهما، وأنه حرر ذهنه كذلك من القيود الفكرية التي ارتبطت في عصره بالعقائد العربية الصحيحة». ويذهب «دي بور» «T.J. de Boer» الهولندي الى أن «الدين لم يؤثر في آراء ابن خلدون العلمية بقدر ما أثرت الأرسطاطاليسية الأفلاطونية». ويشير باحث آخر وهو «نتائيل شميت» «N. Schmidt» بأن ابن خلدون «إذا ذكر خلال بحثه كثيرا من آيات القرآن، فليس لذكرها علاقة جوهرية بتدليله ولعله يذكرها فقط ليحمل قارئه على الاعتقاد بأنه في بحثه متفق مع نصوص القرآن». أما «هاملتون جب» في مقاله

«الاطـار الاسـلامي لابن خلدون» فيقـول «ابن خلدون لا يعدو أن يكون فقيها مالكيا يهدف قبل كل شيء الى تبرير واقـع الخلافة كما فعل قبله الماوردي والباقلاني والغزالي»[1]. . وعلى هذا المنوال سار كل من «إيمانـويل دوفـورك» و«ميكـل كروز» و«جـاك لانـغـاد»[2]. ونستثني مع بعض التحفظ دراسـة «هـنـري لاوست»: «الفكـر السياسي عنـد ابن خلدون»[3]، الـذي رد الاعتبار الى الجانب الديني الفعال في توجيه الرؤية الخلدونية في مختلف إنجازاته. فقـد رتب (هـ. لاوست) المصادر التي استقى منها ابن خلدون نظريته في السياسة: والتي أسس عليها بنيـانـه الفكـري عموما «الكتاب، السنة، الفقه، أصول الفقه، الكلام. .» ثم يسترسل بعد ذلك في شرح مسـائـل الخـلافة، النبوة، الملك، العصبية، التغلب. . وغـيرهـا من المـواضيع التي طرقهـا ابن خلدون في عرضه السياسي. أما تحفظنا فهو بسبب المزالق التي كان يسقط فيها هـ. لاوست وهو يعرض للمسـائـل الـرسمية «السلطة» وعـلاقـة ذلك بعلم الكـلام والمتكلمـين، والتوظيف الايديولوجي الذي ينتهج الأساليب الانتهازية والنفعية وهو يعرض لهذه القضايا التاريخية. .

أمـا البـاحثـون العـرب الـذين اهتمـوا بابن خلدون، فكـان معـظمهم ممن أصيبـوا بغاشية من غواشي التـأثـير الفكري بمستشرقين تحللوا من كل جريجة دينية، فأصاب تفكيرهم رق موضعي. حاكم بعضهم ابن خلدون بعقلية تصنيفية أدانوا فيها انتماءه الفقهي والمـذهبي حيث فجروا خزاناتهم المفاهيمية والمصطلحية الغنية عن كل تعريف. فمحمد أركون يجعل من ابن خلدون ذلك «المثقف المتمدن» الطامح الى منـاصب سياسية ومنـاصب فقهية، وأنـه بقي سجين العقائد السنية دون التفكير فيها[4]. ومن بين ما ورد في دراسة أركون «نحن وابن خلدون» قوله: «إن مواقفه (يقصد ابن خلدون) في الدولة والحكم والـعـصـبية والـديـن والشريعـة تدل على انحيازه للمـذهب المـالكي والآراء الأشعـرية وأهـل السنـة والجـماعـة ضد سائـر المـذاهب المشهـورة في الفكر الاسـلامي»[5] ومعلوم أن نسب النتـاج الفكـري الخلدوني الى تعصب مذهبي «مالكي» أو تشنج لرأي معين «أشعري» فيه طعن كبير وانتقاص من علمية هذا الـنـتـاج الـضـخم. كما فيه نعت بـ«السلفية الـرجعية» و«الأرثـوذوكسية» مقـابل «عقلانية الفكر المتنور». لأن الأولى نوع من «المعطيات الثيولوجية» والـثـاني نوع من «المعـطيات الحضارية» !! (حسب تعبير أركون).

العـروي عقـد مقـارنـة بين ابن خلدون وميكيافلي[6]، فجعل من الأول المحلل الاقتصادي والاجتماعي المادي الكبير. وهذا العمل موجه بقناعة لدى العروي وهي تصنيفه المسبق لابن خلدون في مركزية أرسطو بعد أن أخرجه من أفلاك أفلاطون. ومن ثم تسهل مقارنته بمكيافلي وماركس وغيرهم. أما عنـدمـا يصـطدم العـروي بنصـوص ابن خلدون الصريحة في مسـائـل الخلق والاستخـلاف والسنن الكـونية وربط ذلك كله بإرادة الله تعالى وقدرته. هنا يتسـع الخـرق على الـراقـع و يُلحن عليه بالحجة، فيسـارع الى ملء الفراغ وستر العيب. بما أوتي من حنكة في الالتواء فيقول: «هذا الموقف لابن خلدون لا يعني نفي الـظاهـرة الالهية في المـوجود الانساني أبدا، لذلك فإن من يريد أن يقول أن ابن خلدون أو من وقف هذا المـوقف من الكـائن هو خارج التفكـير الديني، أقول له، أن ابن خلدون هو مسلم مؤمن لاشك في ذلك. ولكن هناك فرقا واحداً وهو أن هذه الظاهرة الالهية في الانسان هي صفة زائدة عن ظاهرة أخرى وهي الظاهرة الحيوانية التي هي أيضا من خلق الاله[7]؟ !! . .

ونتساءل هنا كيف يمكن «للظاهر الحيوانية» أن تكـون من خلق الاله وهي في نفس الوقت غير ملازمة «للظاهرة الالهية» بل هذه الأخيرة صفة زائدة على الأولى؟ ! . . ثم كيف يخلق الله هذه الظاهرة ثم ينفصـل عنهـا، يتركهـا هملا دون تسيير أو إرشـاد وتنظيم؟ ! . .

وقد حاول الطالبي جهده أن يجعل من المقدمة أرضية نظرية سبقت (شارل داروين) وما توصل إليه من مسائل النشوء والارتقاء، موظفا في ذلك بشكل تعسفي سافر بعض التعابير الخلدونية كـ«الاستعداد الطبيعي» و«الاستحالة» وغيرها ليخلص من ذلك الى

أن الكون (حيوان واحد) وأن ابن خلدون ارتقائي. ويلتوي الطالبي بدوره حين يصطدم بنصوص الخلق والاستخلاف، فيقدم لنا بعشوائية أن ما توصل إليه ابن خلدون ضمن «السنن الكونية» لا ينافي الايمان والخلق؟ ! . .

هكذا تتعدد الدراسات وتختلف حسب المحاور التي تَعْرِضُ لها المقدمة، وحمل المقدمة بأكملها على محور واحدَ عَمَلٌ مغرض فيه انتقاص كبير من شموليتها وتضييق لمجالها الموسوعي. فليس صحيحا ما قام به ساطع الحصري الذي جعل محور المقدمة «العصبية» فقط، أو على الوردي الذي جعل موضوعها «البداوة والحضارة»، أو طه حسين الذي جعلها «الدولة»، ومعلوم أن هذا الأخير قدم أطروحة دكتوراه حول «فلسفة ابن خلدون الاجتماعية» وعمل فيها على الحط من هذا العملاق الذي أشاد به علماء الشرق والغرب، فجعله لا يستحق لقب «اجتماعي» وشكك في نشأته ونسبه العربي. . ولا غرابة في ذلك إذا علمنا أن المشرفين على هذه الأطروحة «دوركايم، وليفي برول وكازانوفا. . .» وغيرهم من المستشرقين الذين جعل من مناهجهم التغريبية أساسا لبحثه.

دراستنا للفكر السياسي أن نعرض بعض آرائه وما توصل إليه من نتائج خطيرة مع عرض ذلك على نصوص ابن خلدون نفسها.

ارائه وما توصل إليه من نتائج خطيرة مع عرض ذلك على نصوص ابن خلدون نفسها.

ونشير أخيرا أننا إذ نقوم بإدانة هذا النوع من الدراسات لا نصدر في ذلك عن خلفية محو بعض هذه الجوانب من الفكر الخلدوني، إذ أن اهتمام هذا الأخير بها كان واضحا ضمن فصول وأبواب المقدمة، بقدر ما نحاول رصد العقلية التصنيفية والانتهازية، والتوظيف الايديولوجي لهذه المفاهيم. ولنا الحق بعد ذلك في إبراز الشخصية الاسلامية لابن خلدون كإطار مرجعي منها انبثقت كل المعارف والعلوم الخلدونية والتي لقيت تعتيما كبيراً وطمساً مقصوداً. .

لهذا سنحاول عرض الفكر السياسي عند ابن خلدون معتمدين في ذلك على ابن خلدون نفسه في المقدمة من غير تأويل أو تحميل، بمعنى أننا سنطرح فكره كما يراه هو لا كما نريد أن نراه نحن، ليتمكن القارىء بعد ذلك من كشف خطل وزيف القراءات التأويلية المؤدلجة رغم كثرتها، ذلك لأن الآراء لا تنتصر بكثرة العدد بل بقوة الدليل.

الفكر السياسي عند ابن خلدون:

وسنتطرق فيه الى ثلاثة محاور أساسية: العصبية، الملك والدولة.

1 ـ **العصبية**: ورد في لسان العرب أن العصبية هي: أن يدعو الرجل الى نصرة عصبيته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أم مظلومين. والتعصب لغة منه حسي معنوي، هو شعور الفرد بأنه جزء لا يتجزأ من العصبية التي ينتمي إليها، بل هو استعداد دائم في نفس الفرد يدفعه الى تجسيم هذا الانتماء الى العصبية بفنائه فيها فناءا كليا، إن الفرد في هذه الحالة يفقد شخصيته، بل فرديته ويتقمص شخصية العصبة[9].

يذهب ابن خلدون الى أن العصبية في سكنى البدو تقوم بنفس الدور الذي تقوم به الأسوار والجند في المدن والأمصار، فهي قوة للمواجهة ودفع العدوان[10]، وهذا ما حكاه القرآن عن إخوة يوسف عليه السلام حين قالوا لأبيهم: «لئن أكله الذئب ونحن عصبة إنا إذاً لخاسرون» والمقصود أنه لا عدوان على أحد مع وجود العصبة. ويقسم ابن خلدون العصبية الى خاصة وعامة، فالنعرة والتناصر (العصبية الخاصة) تكون أشد قوة وتأثيرا وأكثر وضوحا بين الأفراد الذين يجمعهم نسب قريب، أما التناصر بين أفراد يربط بينهم نسب بعيد فهو أضعف قوة وأقل شدة. والنسب قد يكون صريحا وقد يشوبه اختلاط، فأما المتوحشون من في القفر من العرب فلا يأنس بهم أحد من الأجيال فيؤمن عليهم من اختلاط النسب وفساده فيبقى صريحا. كما كان في مضر من قريش وكنانة وثقيف وبني أسد وهذيل. أما العرب الذين كانوا بالتلول في معادن الخصب والعيش مثل غسان وطيء وقضاعة فاختلطت أنسابهم وتداخلت شعوبهم[11]. يقول ابن خلدون «اعلم أن كل حي

أو بطن من القبائل وإن كانوا عصابة واحدة لنسبهم العام ففيهم أيضا عصبيات أخرى لأنساب خاصة هي أشد التحاما من النسب العام لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوه بني أب واحد..»[12].

جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنَّعرة على ذوي أرحامهم وقرباهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر..»[13].

فالعصبية إذن لها دورها الحاسم في سياسة الحاكم والمحكومين وفي جمع لحمة المتقاربين وتوحيدهم، وغاية العصبية الرئاسة، والرئاسة لا تكون إلا بالغلب كما أن هذا الغلب لا يتحقق إلا بالعصبية نفسها. وصاحب العصبية إذا بلغ رتبة طلب ما فوقها، فإذا بلغ رتبة السؤدد والاتباع ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لأنه مطلوب للنفس، فتكون بذلك غاية العصبية القصوى «الملك». لكن سرعان ما تنكسر شدة وقوة هذه العصبية بالمذلة والانقياد والعجز عن المقاومة. ويضرب لنا ابن خلدون هنا مثلا لبني إسرائيل لما «دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف عجزوا عن ذلك وقالوا إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصبيتنا»[14].

العصبية في مفهوم ابن خلدون ليست ككل العصبيات في المفاهيم السائدة. فالتعصب مذموم أصلا بدليل النقل والعقل، فقد ذم الشارع العصبية وندب الى طرحها وتركها فقال «إن الله أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية وفخرها بالآباء، أنتم بنو آدم وآدم من تراب» (متفق عليه). وقال تعالى «إن أكرمكم عند الله أتقاكم»، «لن تنفعكم أرحامكم وأولادكم».

هذه العصبية الجاهلية المذمومة، أما إذا كانت عصبية في الحق وإقامة أمر الله فأمر مطلوب، لأن هذا يزيل عنها تلك الصبغة الجاهلية، وهذا ما وضحه ابن خلدون في قوله: «**الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والتحاسد الذي في أهل العصبية، وتفرد الوجهة الى الحق**... والمطلوب متساو عندهم وهم مستميتون

● ابن خلدون في سطور.

* اسمه الكامل عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، واشتهر في بيئات العلم والأدب بـ«ابن خلدون» نسبة الى أحد أجداده القدامى...

* ولد في تونس (1332م/732هـ) وتوفي في مصر (1406م/808هـ)..

* عرف عصره عدة اضطرابات سياسية وانقسامات اجتماعية، سواء في عهد ملوك الطوائف أو في زمن انهيار الأمبراطورية الموحدية وانقسامها، بالاضافة الى نفوذ الافرنج على الأندلس وتدمير بغداد في المشرق العربي من طرف التتر..

* شمل نشاطه ميادين متعددة في الادارة والمناصب السياسية والخطابية والقضاء وغيرها.. وكان لكل هذه العوامل انعكاس كبير على فكر ابن خلدون ونظرياته الاجتماعية والسياسية على الخصوص..

* اعتزل الحياة العامة واختلى في قلعة ابن سلامة أربعة أعوام كانت أثمن وأخصب فترة في نشاطه الفكري وإنتاجه العلمي، ففيها ألف مقدمته على ذلك النحو الغريب...

* ابن خلدون أخيرا هو أحد كبار المؤرخين المسلمين القدامى، تتجلى أصالته وسموقه في ذلك المنهج العلمي الذي فصله و دعمه في مؤلفه التاريخي المشهور «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر»...

عليه»[15]، ويضرب ابن خلدون أمثلة لذلك من فتوحات صدر الاسلام حيث «كانت جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعة وثلاثين ألفا في كل معسكر وجموع فارس مائة وعشرين ألفا بالقادسية، وجموع هرقل على ما قاله الواقدي أربعمائة ألف فلم يقف للعرب أحد من الجانبين وهزموهم وغلبوهم على ما بأيديهم، وأعتبر ذلك أيضا في دولة لمتونة ودولة الموحدين... إن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاستبصار والاستماته... واعتبر ذلك إذا حالت صبغة الدين وفسدت كيف ينتقص الأمر...»[16].